العقيدة الأشعرية .. مرجعية فكرية.
– الحضور في فكر وذهنية إنسان المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط –

أ/ نذير برزاق – قسم التاريخ – جامعة محمد بوضياف المسيلة
أ/ خلفات مفتاح– قسم التاريخ – جامعة محمد بوضياف المسيلة

الملخص:

حظيت العقيدة الأشعرية باهتمام مجتمع المغرب الأوسط وجعلوها اختيارهم العقدي بجانب الفقه المالكي والطريقة الجنيدية في التصوف، حيث انعكست في تفكيرهم بفضل شخصية الإمام الغزالي (ت505هـ) في البداية، ثم شهدت مرحلة إبداعية تجديدية تكفّل بها محمد بن يوسف السنوسي(ت895هـ) حين صاغ مؤلفات عقدية مع شروح تفصيلية لها بُغية إرساء المجتمع على ساحل الأمان العقدي ورفع الغشاوة عن القلاقل العقدية وبسط السكينة المعرفية في فكرهم.

كما سعينا لانتقاء بعض الأفكار التي تخص هذه العقيدة وتُعدّ بنودا فيها تعكس حقيقة الانتماء إلى هذا الفكر، ولعلّ الأنموذج الذي قدّمنا عنه إضاءات خافتة عن فكره وطرحه عبد الرحمن ابن خلدون (ت808هـ).

الكلمات المفتاحية: العقيدة الأشعرية– المغرب الأوسط– الإمام أبو حامد الغزالي– الإمام محمد بن يوسف السنوسي– عبد الرحمن ابن خلدون.

Summary :

The dogma of « Al-Achariya » was of great importance to the community of the Middle Maghreb to the point that it was their preferred belief beside their « fiqh Al Maliky » and beheavour of « junidy » in the soufisme.

At first, this dogma was reflected in the thinking via the personality of Al Ghazali (died 505 H) . Then, Mohamed Ben Youcef Al Sanoussi (died 895H) renovated this dogma by the books he published. He was aiming at securing the dogma of the community.

I did my best to select they ideas witch illustrate the principles of the Achariya dogma.

Ibn khaldoun was one of the modales witch adopted the ideas of this dogma.

Keyword: Achaariya dogma – Middle Maghreb- Al Ghazali- Al Sanoussi- Ibn khaldoun.

مقدمة:

عدّت العقيدة الأشعرية إحدى ثوابت المرجعية الفكرية التي تبناها مجتمع المغرب الأوسط، وجعلوها بمثابة المأوى العقدي في سبيل الوعي المعرفي لأفكارهم وسلوكياتهم، ولعلّ الزوبعة التومرتية أحدثت نقلة نوعية في فكر مجتمع المغرب الإسلامي وامتد تأثيرها إلى مابعد الموحدين أين تبوأت العقيدة الأشعرية مكانة مرموقة، وأضحت مشجبا للخاصة والعامة إلى جانب المذهب المالكي والطريقة الجنيدية.

ولعل الحدث السنوسي هو الذي أعاد إحيائها وبثّها حين مكّنها في فكر المجتمع بتآليفه التي صاغها على منوال الرؤية الأشعرية مراعيا مستويات الفهم؛ فأعطى بذلك نَفَسًا جديدا للعقيدة ووقف عند الهواجس والحواجز التي ظلّت تُؤرق المجتمع وتُوَلِّد لهم مساحات غير آمنة عقديا بداخلهم، فأحكم الطوق على إحدى مقومات تركيبة المنظومة

الفكرية وساهم في تقديم إضاءات وإيضاحات بسطت سكينة معرفية لجعلها مرجعية ثابتة مستمرة في أداء الوظيفة التاريخية.

- ما دواعي تبني مجتمع المغرب الأوسط للعقيدة الأشعرية؟
- فيما تتجلى البصمة السنوسية في الإبدال العقدي الأشعري؟

1- العقيدة الأشعرية .. الأُسُّ الفكري:

تعددت المذاهب والآراء والمعتقدات وظهرت نحل في ملل، كل يعلو بصوته ويدلو بدلوه في الذب عن العقيدة باعتبارها أس المجتمعات، فصلاح المعتقد استقامة للحياة والسلوك وفساد المعتقد ترهّل للوجود والقيم، ولعل أبرز معتقد ظهر في الفكر الإسلامي بعد مخاض عسير العقيدة الأشعرية المنَظَّر لها من قبل أبي الحسن الأشعري[1].

هذا الأخير استطاع تأسيس مذهب كلامي جديد يجعل من النص الشرعي منطلقا ويعضده بالأدلة العقلية والبرهانية، أين نَصَرَ مذاهب السلف بمناهج الاعتزال[2]، وتجلت ثمرة مراحله السابقة الانتمائية في صناعة مرحلة ائتمانية للفكر العقدي لإنسان العصر الوسيط وما بعده، فكان نتاج تطور مذهب أهل السنة والجماعة، حيث انتقل من مرحلة تجنب الخوض في دقائق علم العقيدة كالذات الإلهية إلى مرحلة الدفاع عن العقيدة الصحيحة بالأدلة والبراهين التي تناسب طبيعة التحدي العقدي والفكري في المجتمعات الإسلامية[3].

فاستطاع الانفراد بمعتقد جديد قعده وسَنّنه وأسس بذلك لنحلة ظلت محل قبول ورفض وتباين آراء حول مؤسسها ومن بعده وانتقاد لأفكار وأشخاص[4].

2- الأشعرية في معتقد إنسان ما بعد الموحدين :

سمة الأشعرية على طول خط حضورها التاريخي استطاعت أن تساهم في التمكين للمعتقد القويم، وذلك بالدفاع والجدال والسجال والحِجاج عن الثوابت والمبادئ

الرئيسية للمعتقدات الإسلامية في مجابهة تحديات الملل والأهواء والنحل المخالفة لها منهجا ورؤية في مجال أوسع امتد إلى فكر الآخر المناقض لها.

وما تتميز به هو ذاك النسق العقدي الذي تتحرك فيه بدقة لا متناهية من الانسجام بين جوانبه وجزئياته وفي إطار دقائق مفاهيمه الذي تحكمه رؤية منهجية معينة[5]، ووسطيته الفكرية المتجلية في الأخذ بأدلة العقل إلى جانب الأخذ بأدلة النقل من غير تعسف ولا تطرف، فكان بحق ممثلا لمذهب أهل السنة والجماعة[6].

فجاء اختيار المغاربة لها للدلالة على عمق الانتماء الحضاري إلى الأمة الإسلامية وحرصهم على وحدتها العقائدية[7]؛ لأن لكل أمة منظومتها العقدية الفكرية في الأصول والفروع والمناهج والمسالك[8]، فولّد روابط وتداخلا بين المجال المغربي الإسلامي – والمقدس الإسلامي – العقيدة الأشعرية، واحتضن كل واحد الآخر أين ساهمت العقيدة في هندسة المجال وساهم المجال في احتواء الفكر[9].

إلا أن تحولات فكرية وسياسية في القرنين الرابع والخامس الهجريين جعلته يتجاوز وضعه كمذهب كلامي ويتحول إلى قضية ذات أبعاد ثقافية وسياسية محورية في مذاهب أهل السنة وخاصة في علاقتها بكل من التشيع والاعتزال.

كما تُعَدّ العقيدة الأشعرية عنوان لتوجه عقدي ومذهب كلامي جديد وتجديدي ولد من رحم أزمة التوسع والتكاثر العقائدي، أين كانت الساحة آنذاك مِرْجَلاً تغلي بالمذاهب والعقائد، والمرحلة التاريخية آنذاك على صفيح ساخن من التطرف والغلو الفكري، فالبيئة الحضارية والفكرية والنفسية كانت مشجعة ومواتية للظهور ومقارعة النحل الأخرى.

– ما الظروف المؤثرة في التمكين للعقيدة الأشعرية بتبوأ مكانة بالمغرب الإسلامي؟

تبني مجتمع المغرب الإسلامي للعقيدة الأشعرية كان عن قناعة ترسّخت بعد طول أمد، وتمثل عندهم قاعدة حياة لمعتقدهم[10]، فكانت بحق مرجعية فكرانية لعقيدتهم وبنوا مسائلهم على مقاسها وواكبوا مستجداتها المتجددة بتجدد الزمان والمكان وتغير الأحوال والمقتضيات[11].

لكن الحركة الانتقالية للعقيدة الأشعرية إلى المغرب الإسلامي كانت في وقت مبكر، وشهدت ذيوعا وصيتا من خلال التأثير الكبير والعميق لأفكار وطروحات الإمام أبو حامد الغزالي (ت 505 هـ / 1111 م) بالتزامن مع حملة المرابطين عليه مما ولد نتيجة عكسية بجدلية القمع والإقناع، وظهرت بعده شخصيات مغاربية مؤثرة مشبعة بفكر الغزالي وحاملة لتجربته الصوفية الممزوجة بعقيدته الأشعرية على غرار أبي بكر العربي المعافري وابن تومرت وأبي مدين شعيب[12]، وكانت تتمتع هذه الكوكبة بمركزية التأثير في ذهنية وفكر وسلوك مجتمع المغرب الإسلامي عموما والمغرب الأوسط خصوصا.

إضافة إلى تلك الثلة من العلماء وجهودها الفردية وهمومها الجماعية كذلك ساهم فرد العامة في تقبل المعتقد الأشعري والتمسك به والحفاظ عليه؛ فكان مأواه العقدي وملاذه الفكري حتى بالمجتمع القبلي، فلَمَّت العقيدة شمل المجتمع الحضري والقبلي تحت عباءة معتقد واحد وهو الأشعرية؛ فدانت مجموع القبائل بالعقيدة الأشعرية وهي –بدورها – تَقَوّت عن طريق مفهوم اعتناق القبيلة لمعتقد مشترك[13].

إضافة إلى جملة من الدواعي رغّبت خاصة وعامة المغرب الإسلامي في اعتناق العقيدة الأشعرية لعلة أنها عقيدة التوحيد، بالإضافة إلى أنها تمثل منهج الوسطية والاعتدال، وانتماء عدد كبير من العلماء لها باعتبارها الوحيدة التي جمعت بين المالكي والشافعي والحنبلي[14].

والتزام مجتمع المغرب الإسلامي بهذه المنظومة الفكرية العقدية والسير على نهجها بجدلية الائتلاف والاختلاف بالتعاون والإثراء لِمَا اتفقوا عليه وإعذار بعضهم البعض فيما

اختلفوا فيه، حيث اختلافهم في بعض التفاصيل إما لِتبايُن في التصور نتيجة التطور أو بداعي اختلاف العوارض والأحوال والأفكار والتصورات لأنها قابلة للتغير بتغير الزمان والمكان والأحوال[15].

وما يجب التأكيد عليه هو أن الانخراط الفكري في المعتقد الأشعري كان بميزة الخصوصية ومراعاة الأحوال، فالناظر في تأليف العلماء للدرس العقدي بنظرة اجترار كلام السلف من المشارقة واهم ومتخيل[16]؛ لأن خاصة المغرب الإسلامي كانوا مواكبين لسياقات التحولات والتغيرات ومراعاة الاختلاف، فكانوا في جدلية انتماء للإطار العام وائتمان لواقعهم وحالهم، فأبدعوا في التصنيف والطرح بمراعاة الخصوصية الذاتية في سياق الخِصِّيصَة الجماعية.

كما أن ثبات المغاربة على عقيدة أبي الحسن الأشعري لِمَا لها من علاقة متينة مع الفقه المالكي، فالكتب الفقهية التي كانت تُدَرَّسُ انتماء أصحابها إلى العقيدة الأشعرية كأبي زيد القيرواني وابن الحاجب وابن عاشر[17]، فانضافت خصوصية التكتل بين العقيدة والفقه إلى خصوصية الإبداع، وأضحت بهذا العقيدة الأشعرية قاعدة حيوية فكرانية ارتكازية لضبط المرجعية وذهنية وعقلية وثوابت إنسان المغرب الإسلامي.

كما استمرت الأشعرية في رحلة البحث عن التمكين لمعتقدها وقطعت مسافات معرفية لأداء وظيفة تاريخية تضمن الاستمرارية لوجودها وإيجاد مكانة ضمن البناء الفكري لمرجعية إنسان المجال هذا، ولعل الخبط العشواء لواقعها زمن المرابطين عُوِّض بنسج خيوط جديدة لأفكارها عصر الموحدين محولين إيجاد مصوّغ معرفي لها تحت سماء النظام الفكري، إلا أن حالة من الاستقرار العقدي ظهرت ملامحه خلال فترة الموحدين ستنعكس على ما بعدهم بتمهيدهم لسبل التمكين لهذا المعتقد في نفوس إنسان ما بعد الموحدين.

حيث استطاعت المرجعية العقدية الأشعرية أن تكون – مع أفول نجم الموحدين – منظومة مميزة لها مقومات معرفية مخصوصة من حيث آليات إنتاجها المعرفي والمعرفة التي

تكرسها[18]، ولعل ما يبرز ذاك التأثير الموحدي وتداعياته على الفترة ما بعده أن عرف ق 8هـ/14م تطورا في العلوم والآداب وبالأخص في العلوم الدينية بفضل الإصلاح الموحدي في بلاد المغرب أين انعكس بشكل لافت على انتشار كتب الأشاعرة خاصة كتب الغزالي وظهر الاهتمام بها دراسة وتدريسا[19]، وتغيرت المعالم من قديمة إلى جديدة أين خرجت العلوم الدينية من طور منابذة الرأي والعقل وانتقلت إلى طور عقائدي أكثر توازنا واعتدالا[20].

بل امتدت سهام الإصلاح الموحدي إلى غاية ق9هـ/15م حينما عرفت وشهدت تحولات عقائدية كانت من تداعيات الفترة الموحدية وظهر الاتجاه نحو القناعة العلمية والرضا بالقليل من الفقه والمعرفة والتغاضي عن العلوم العقلية والعلمية وتفضيل علوم الدين والتصوف والفروع الفقهية على علوم الطب والهندسة، فما أشبه حال ق9هـ/15م بحال العصر الموحدي[21].

لكن العقيدة الأشعرية ظلت صامدة التمكين وصامتة التغلغل، استطاعت فرض سيادتها على ذهنية ومعتقد إنسان ما بعد الموحدين وانتشرت زمن الحفصيين والزيانيين والمرينيين، فقد اعتمدت الدولة الحفصية في المجال العقدي على التأويل كما يذهب إلى ذلك الأشاعرة، كما ظلت الأشعرية سائدة في المغرب الأوسط وبرعاية سلاطين بني زيان لكنهم نقحوها مما شابها من أفكار كالعصمة والمهدوية والإمامة[22].

على الرغم من بسط نفوذها خلال القرن التاسع الهجري إلا أن مرحلة ق 6-8هـ/12-14م مثّلَت قمة الهرم في تطور العقيدة الأشعرية بالمغرب الإسلامي حين أبانت كتابات أقطاب الفكر الأشعري عن مستوى رفيع في المناقشة والتحليل والشرح ظلت إلى فترة متأخرة مرجعية أساسية وسندا لعلم الكلام الأشعري فيما بعد[23].

3- البديل الفكري العقدي بالمغرب الأوسط:

كل مرحلة زمنية لها خصائصها التاريخية والفكرية بالأخص، ويظل الإنسان دائما ينشد الحقيقة والصواب في معتقده وسلوكه ويتعطش لسبر أغوار أفكار جديدة علها ملاذه الفكري.

بَدْأُ التأليف لدى العلماء في مختلف موضوعات العلم كان موضوع العقيدة يأخذ الصدارة في أول أبحاثهم مع اختلاف وتباين مدارس ومناهج وأساليب التصنيف، مما يعد أحد أهم أسباب إثراء روافد البحث فيها بحيث يتناولها كل من زاويته ونظرته الخاصة بمناهج متعددة تدل على اتساع الأفق المعرفي لهذه الكوكبة المبدعة الفذة[24].

ولا يخفى على أحد جهودهم في خدمة العقيدة الأشعرية أين تجسد ذلك في المصنفات الكثيرة المتنوعة الجامعة ما بين نثر وشعر وشرح وتلخيص مراعية أصناف المتلقين ومسايرة لمستوياتهم العلمية والفكرية وقدرتهم على فهم الخطاب الخاص بهذه العقيدة[25]، فصَبُّ الاهتمام بالعقيدة الأشعرية يقينا منهم أنها السلاح العاصم من الفرق الضالة؛ ما جعل بعض المتون العقدية إلزامية في التعليم تلخيصية للعقيدة الأشعرية بأسلوب يستوعبه الخاصة والعامة وأبرز هذه المتون: " أم البراهين " للإمام محمد بن يوسف السنوسي (ت895هـ) التي استطاعت أن تحقق مقاصد جليلة ليس فقط على مستوى تعريف الناس بأشعريتهم تعريفا صحيحا بل أيضا على مستوى تحصينهم بما يهدد عقيدتهم[26].

للعلم أنه قبل ظهور عقائد السنوسي على الساحة الفكرية، التزم مجتمع المغرب الإسلامي عموما والمغرب الأوسط خصوصا بأصول " العقيدة البرهانية في علم الألوهية " لأبي عمرو عثمان السلالجي (ت574هـ)؛ حيث بسطت هيمنتها وأضحت مصدرا للمرجعية العقدية الأشعرية، أين ظلت تُدرَّسُ في المدارس والجوامع لأنها العقيدة الرسمية للمجال إلى غاية ق9هـ/15م[27]، وكانت ضرورية لعامة المتلقين نظرا لبساطتها ولتمثيلها

لمجموع المعتقد الأشعري في صفائه ونقاوته، فأضحى بهذا السلالجي لبنة من إسهامات مفكري الأشاعرة الأوائل في ترسيم المعتقد الأشعري في أوساط المغرب الإسلامي[28].

لكن إبدال فكري عقدي في المنهج طرأ مع الحفاظ الرؤية: يا ترى صوت ونداء من تعالى؟

بعد السلالجي (ت574هـ) دخلت العقيدة الأشعرية طورا جديدا تمثل في ظهور فكر أشعري يتميز بالتوسع في التحليل ومناقشة الجزئيات والوقوف عند دقائق الأمور فاسحا المجال لظهور مؤلفات عقدية غزيرة المادة كبيرة الحجم وظهور تفنن منهجي وطرق جديدة في عرض الأفكار[29]، هذه المرحلة هي تلك التي دشنها المفكر التلمساني أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي (ت 895هـ) بعقائده المتعددة – لجميع فئات المجتمع: الكبرى والوسطى والصغرى والمفيدة والحفيدة مع الشروح لها – التي صبغت الساحة العقدية، فطوّر أفكاره داخل العقيدة الواحدة وهي الأشعرية، واجتهد في إطارها ولم ينفصل عنها فكانت الرؤية مشتركة موحدة والمنهج متباين ومختلف، فَنَحَتَ السنوسي لوحة عقائدية جديدة في العقيدة الأشعرية ظلت لأمد طويل مرجعية ثابتة في المعتقد.

عناية بالغة حظي بها الدرس العقدي منذ تلك النقلة السنوسية، وأعلن عن تجلية معاني العقيدة السنية الأشعرية وتقريبها للناس بأسلوب ميسّر لا ينفك في أصوله ومستنداته عن الارتباط بأبرز مصادر المعرفة الكتاب والسنة والارتكاز على عقول وأفهام العلماء[30]، أين ساهموا في ترسيخها خاصة بالمغرب الأوسط، بل عُدّت الوحيدة من حيث التأليف والتعليم[31]، وستدخل مرحلة جديدة تميزت بالتراكم المعرفي الكبير في المؤلفات العقدية تجعل من المرحلة توصف بـ: المرحلة السنوسية[32]؛ التي تمثلها مصنفات الإمام أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي التلمساني (ت895هـ)، متمما المراحل السابقة لحضورها بدءا من التمثل الفردي للعقيدة الأشعرية ثم التكريس الموحدي لها كعقيدة رسمية وتليها مرحلته[33].

فكان الإبداع والتجديد من المغرب الأوسط بفضل السنوسي الذي استطاع بتفتق عقله أن يجيب من خلال مؤلفاته عن كثير من القضايا التي تهم الجانب العقدي وأن يرسخ العقيدة الأشعرية في فكر إنسان المغرب الإسلامي ويبعث فيه حياة جديدة بضخ دماء جديدة لتواصل العقيدة سيرتها وتمارس هيمنتها على الرغم من المعارضة الشديدة من قبل أحد معاصريه وهو أبو العباس أحمد بن زكريا التلمساني (ت899هـ) بسبب مسألة إيمان المقلد ورؤية المعدوم[34].

وغير ذلك من القضايا الجديدة التي تناولها ودشن بها السنوسي مرحلته على غرار محاربة التقليد وإحياء الاجتهاد في علوم النظر بعد ظهور الفساد في عقائد الطلبة والفقهاء أين أوجب على الجميع تحصيل العلوم من طريقها المألوف وهو الاجتهاد والتعلم من العلماء والتزام التعب في الدرس والرحلة في طلب الفوائد[35].

بهذا وغيرها استطاع السنوسي تأسيس مرحلة جديدة في تاريخ الفكر الأشعري بالمغرب الإسلامي وتكون فيها عقائده المرجع والسند لمن بعده[36].

4- تجليات المعتقد الأشعري .. أفكار وأشخاص:

تبنّي هذه العقيدة تظهر ملامحها من ناحية الأفكار؛ فالأشاعرة يتنزلون بين طريقتين طريقة المتقدمين وطريقة المتأخرين، حيث يعتبر الغزالي وكذا الرازي من بعده أول من كتب على طريقة المتأخرين[37]، والعلامة المميزة بينهما هي قول المتقدمين ببطلان المدلول لبطلان الدليل وعلى العكس من ذلك يرى المتأخرون أنه ليس من بطلان المدلول بطلان دليله[38].

كما يتنزل الناس في النظام المعرفي الأشعري إلى خاصة وعامة بمعيار المعرفة، لكن بحقوق وواجبات لكل طرف مع التركيز على مبدأ العمل المقرون بالعلم، فلا مكان لعلم لا ينتج عنه عمل ولا معنى للعمل لدى الخاصة في المنظومة الأشعرية إن لم يكن متصلا بشؤون المدينة ولم يكن متعلقا بطرق عدة بأمور العامة وسبل نجاتها[39]، لأن خطاب

العمل عند الأشعرية يمكّن الباحث مما لا يمكّنه من خطاب النظر والمعرفة وحدها لأنها تُظهر التناقض بين واقع الممارسة النظرية عند المفكر الأشعري وبين ما يعلنه من قول وقصد، فخطابها خطاب تشريع عملي لأحكام الممارسة وشروطها وقوانينها[40].

ومن التجليات البارزة في المعتقد الأشعري في الجانب السياسي، البند الذي يوجب السمع والطاعة لأئمة المسلمين[41]، وهذه إحدى صور الرضوخ الأشعري للواقع الالتزام بطاعة أولي الأمر حتى وإن أساؤوا[42].

بالإضافة إلى الثابت الأشعري وهو نبذ التقليد وإيجاب النظر العقلي في العقائد على العموم وتعميم المعرفة الكلامية على مجموع أفراد المجتمع عامتهم وخاصتهم واعتبار ذلك شرطا أساسيا في الإيمان[43].

ومن أبرز العلماء الذين صبغت حياتهم الفكرية بالعقيدة الأشعرية عبد الرحمن بن خلدون (ت808هـ/1405م)؛ فهو يجول بتفكيره في سائر العلوم والمسائل المتعلقة بها داخل المدار الفكري السني الأشعري، ولم يخرج عن المنظومة الأشعرية في شكلها النمطي عند النظر إلى سائر المجالات التي كتب فيها[44]، ففي شخصيته العلمية ما يجمع التراث الإسلامي بتعدد مذاهبه مهما كانت إلا أن النزعة الأشعرية هي الغالبة وقد يكون لمذهب ابن تومرت الأثر غير المباشر[45]، وتفكيره لم يكن يخرج عن المرجعية الأشعرية أو تجاوزها، بل كان مؤطرا بها منتجا في حدودها المعرفية والمنهجية، لذلك جاءت مقارباته النقدية في سائر الحقول المعرفية ترجمة عنها[46]، ورؤيته الصادرة عن التراث الأشعري تجلت في إبطاله الفلسفة ومنتحليها ورفض آراء الفلاسفة والمتكلمين ذوو التوجه غير الأشعري، فمضمون نظرية ابن خلدون مضمون نظري أشعري فهو يؤمن بعالمين: محسوس وروحاني[47]، فتميز ابن خلدون بالشمولية واتساع التغطية والقدرة على توظيف آليات الفكر السني الأشعري في اتجاه الارتقاء بها إلى درجة التحكم الكلي في عمليات الإنتاج المعرفي سواء ما تعلق بالعمران أو بفهم الوجود[48].

لذا انتصار ابن خلدون للأشعرية مشهور إذ يعتبرهم من أهل السنة، ولهذا البعد العقدي انعكاساته على البعد الموضوعي في العرض التاريخي، فنراه يهمل ذكر المعتزلة في فصل علم الكلام في نشأة هذا العلم وتسميته وتطوره مما يجعل من لا دراية له بتاريخ هذا الفن يتوهم أن علم الكلام بدأ من الأشعري[49]، لكن أشعرية ابن خلدون كانت – في مرحلة الانحطاط والجمود – ضربا من بعث الحركة داخل الفكر السني بإعادة توظيف آلياته حتى يتمكن من الاستمرار[50].

فما ابن خلدون إلا أنموذج من متبني العقيدة الأشعرية بالمغرب الإسلامي وترجم ذلك في تآليفه وآرائه وفي صناعة أفكاره ورسم عمران مجتمعه وذهنيتهم وسلوكهم.

خاتمة:

الباحث المنقب فيما أنتجته النخبة ما بين العصر الموحدي إلى المرحلة السنوسية، يجد أن معالم المعتقد الأشعري عرف جدلية الرج والرواج في الأفكار والتآليف، إلا أنها شكّلت في نهاية الأمر ثابتا من ثوابت مجتمع المغرب الأوسط ومكونا من مكونات هويته الدينية ومعلما من معالمه الثقافية والحضارية ومرجعا فكرانيا لمعتقده.

ولم يكن حضورها وتغلغلها عشوائيا في تراث هذا المجال، بل كان وجودها ضرورة مقاصدية، مما جعلها مقوما من مقوماته الفكرية وثابتا في الثلاثية المرجعية ولبنة في شبكة المنظومة التي عبر عنها عبد الواحد بن عاشر (ت1040هـ) في منظومته[51]:

في عقد الأشعري وفقه مالك وفي طريقة الجنيد السالك.

الهوامش:

1- أطنبت المصادر وبالأخص كتب التراجم في التطرق لترجمة شخصية أبي الحسن الأشعري وتصانيفه، فكفتنا المصادر هذه مؤونة إعادة تدوين ترجمة تذكيرية للشخصية وما يهمنا هو الإفصاح وإعادة التوضيح بما له علاقة بسياق العنصر والظروف التاريخية المنتجة لهذا المعتقد، فيكفينا التلميح

إلى أن أبا الحسن الأشعري كان معتزليا ثم أعلن اعتزاله الاعتزال وتأسيس عقيدة جديدة هي العقيدة الأشعرية التي لا زالت ثابتا عقديا إلى اليوم مشرقا ومغربا.

2- خالد زهري، " مستويات الإبداع في علم الكلام الأشعري عند المغاربة "، ضمن كتاب: جهود المغاربة في خدمة المذهب الأشعري، لمجموعة باحثين، تنسيق: جمال علال البختي، دار أبي رقراق، ط1، الرباط، 2012، ص67.

3- محمد الأمين بوحلوفة و بوركبة محمد، "السلطة و قبائل البربر و إسهامها في حفظ الفكر الأشعري في المغرب الأوسط"، مجلة الحضارة الإسلامية، ع27، الجزائر، 2015، ص256 -257.

4- تباينت وجهات العلماء في الحكم على المعتقد الأشعري بين قابل لآرائه ودلائله ومواضيعه وبين رافض لمضمونه ورؤيته ومنهجه، وقد رصدت المصادر هذه الجدلية بين الولاء والبراء للمعتقد الأشعري.

5- عبد الخالق أحمدون، " عناية المغاربة بالعقيدة الأشعرية "، مجلة التاريخ العربي، ع51، المغرب، 2010 ، ص276.

6- محمد الكتاني، جدل العقل و النقل في مناهج التفكير الإسلامي في القديم و الحديث، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1992، 169/2.

7- عبد الله معصر، تقريب المذهب و العقيدة و السلوك، دار أبي رقراق، الرباط، 2012، ص90.

اختيار المغاربة للثابت العقدي الأشعري جاء بعد أمد طويل من المراحل التي سبقت حضوره وتمكنه في عقولهم وإرضاءه لأنفسهم معتقد مرجعي يستندون إليه في عقائدهم الإيمانية، لكن الباحث محمد الكتاني اعتبر جمود المسلمين على المذاهب الإعتقادية كالأشعرية قد أضر بهم أكثر مما أضر بهم الجمود في الفقه، ولقبول هذا أو رفض هذا الطرح يتطلب مزيد تنقيب عن حجم الضرر الذي ألحقه الجمود على ذهنية إنسان المغرب الإسلامي بالخصوص ضمن السياق العام للضرر العقدي للمجتمع الإسلامي عموما حسبه. محمد الكتاني، المرجع السابق، 185/2.

8- محمد الادريسي التمسماني:" العقيدة الأشعرية مادة في التعليم و التربية- الواقع و الآفاق-"، ضمن كتاب: جهود المغاربة في خدمة المذهب الأشعري، لمجموعة باحثين، تنسيق: جمال علال البختي، دار أبي رقراق، ط1، الرباط، 2012، ص 33.

9- يتداول داخل المنظومة العقدية مصطلح مجالي وهو الدار باعتباره يحوي عناصر قدسية ولِما تحتضن من عناصر الوحدة والتوحيد، وبهذا جاء ذكر هذا المجال في محتوى هذه المنظومة نظرا

للخصوصيات التي يحملها وكذا الإمكانية في تشخيص الخاصيات الجوهرية للمنظومة العقائدية. نور الدين الزاهي، المقدس الإسلامي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2005، ص33.

10- لا تعد العقيدة الأشعرية لوحدها ركيزة قاعدة فكر مجتمع المغرب الإسلامي، إنما هناك ركائز أخرى وسواكن معرفية إضافية استند إليها المجتمع لصناعة منظومة فكرية تحصينية لفكرهم وسلوكهم، وهما: المذهب الفقهي المالكي والسلوك الصوفي الجنيدي.

11- خالد زهري، الفقه المالكي و الكلام الأشعري - محاولة لإبراز بعض ملامح الإبداع الكلامي و الصوفي عند فقهاء المغرب -، المكتبة العصرية، ط1،بيروت، 2011، ص31.

12- ساعد خميسي، " موقف ابن خلدون من علمي الكلام و التصوف"، ضمن كتاب: ابن خلدون و منابع الحداثة، ج2، المجمع التونسي للعلوم و الآداب و الفنون، قرطاج، 2008، ص 108-109. هناك شذرات تاريخية تعطي ملمحا عاما على وقت دخول الأشعرية للمغرب الإسلامي قبل ق 6هـ/12م تؤكد على وجودها قبل هذا بفضل عائد الصلات والرحلات العلمية بين المشرق والمغرب وترصد انتقال المضامين والمؤثرات والمصادر، ولمزيد اطلاع. انظر إبراهيم التهامي، الأشعرية في المغرب – دخولها، رجالها، تطورها، وموقف الناس منها -، دار قرطبة، الجزائر، 2006، ص 05. محمد المغراوي، " تطور المذهب الأشعري بالمغرب الأقصى إلى حدود العصر المرابطي"، ضمن كتاب:" التاريخ و الفقه"، تنسيق :محمد حجي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2002، ص134.

13- خاصة إذا تحدثنا عن دور القبيلة والفرد فيها أين يمنع من استقلالية الشخصية في التسيير فهو تحت طاعة الجماعة التي تحدد له معتقده، ومن هذه الفكرة انطلقت رحلة المحافظة على العقيدة الأشعرية بالمغرب الأوسط .بوحلوفة، المرجع السابق، ص262.

14- عبد الله معصر، المرجع السابق، ص 90 – 91. في عدّ هذا السبب الأخير من دواعي تبني أهل المغرب الإسلامي للعقيدة الأشعرية انخراط كوكبة من العلماء فيها من مختلف المذاهب، حُقّ لنا أن نتساءل عن سر غياب الحنفية في سياق الذكر للمذاهب الأخرى وعن مكمن خلل التقارب بين الأشعرية والحنفية، ولعل العلة تعود إلى مجال الانتشار؛ أين نجد الحنفية منتشرة ومتداولة في فضاء طغى عليه الاعتزال والتشيع بعكس المذاهب الأخرى التي انشطر مفعولها في مناطق تتميز بسلامة المعتقد وكانت أقرب إلى الأشعرية والتحالف معها والالتحاف بردائها.

15- محمد الادريسي التمسماني، " العقيدة الأشعرية مادة في التعليم و التربية- الواقع و الآفاق-"، ضمن كتاب: جهود المغاربة في خدمة المذهب الأشعري، لمجموعة باحثين، تنسيق: جمال علال البختي، دار أبي رقراق، ط1، الرباط، 2012، ص37.

16- يوسف احنانة، تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي، ط2، منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، المغرب، 2007، ص186. اجتهد وأبدع علماء المغرب الأوسط في الجانب العقدي درسا وتأليفا، وما يؤكد هذا التداول والانفتاح والانتشار لمصنفاتهم وآرائهم أفقيا وعموديا في الحركة التاريخية زمانا ومكانا خاصة تآليف رائد التصنيف الإبداعي الفكري العقدي محمد بن يوسف السنوسي (ت895 هـ).

17- عبد القادر باجي، الإمام المغيلي- عصره وحياته دراسة تاريخية تحليلية وتوثيقية -، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2012، ص 93.

18- ناجية الوريمّي بوعجيلة، "المرجعية الأشعرية في تفكير إبن خلدون"، ضمن كتاب: مرجعيات إبن خلدون ومصادر تفكيره، المعهد العالي للغات، تونس، 2007، ص359.

19- محمد بوشقيف، "تطور العلوم ببلاد المغرب الأوسط خلال ق8-9هـ/14-15م"، رسالة دكتوراه، جامعة أبي بكر بلقايد، قسم التاريخ، تلمسان، 2011، ص 20-21.

20- عبد الحميد حاجيات،" الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بن زيان"، مجلة الأصالة، ع 26، الجزائر، 1975، ص139.

21- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1981، 129/1.

22- نبيل شريخي، "دور علماء تلمسان في الحياة السياسية و الاجتماعية و العلمية في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين 8-9هـ/14-15م"، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، قسم التاريخ والجغرافيا، الجزائر، 2010، ص 36. من النماذج جدال الإمام السيوطي ابن زكري التلمساني في مسألة وقضية الإمامة . سعيد البوسكلاوي،" الجدل الكلامي في عصر إبن خلدون"، ضمن كتاب الأبنية الفكرية في المغرب الإسلامي زمن إبن خلدون، لمجموعة باحثين، تنسيق :بناصر البعزاتي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2007، ص141. كما عمل بنو زيان على تنقيح الموروث الموحدي ومراجعات على مضمون معلمهم القديمة فقضوا على خرافة العصمة والمهدوية والإمامية ونقحت في

عهودهم العقيدة الأشعرية مما شابها من أفكار تلفيقية من المعتزلة والشيعة. عبد العزيز فيلالي، بحوث في تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط، دار الهدى، عين مليلة- الجزائر، 2014، ص 98.

23- عبد الخالق أحمدون، المرجع السابق، ص291.

24- التمسماني، المرجع السابق، ص39.

25- أحمد عبادي، "مقدمة كتاب: جهود المغاربة في خدمة المذهب الأشعري"، لمجموعة باحثين، تنسيق: جمال علال البختي، دار أبي رقراق، ط1، الرباط، 2012، ص05. مراعاة أصناف المتلقين سمة بارزة في تآليف محمد بن يوسف السنوسي العقدية حيث استطاع تصنيف عقائد لجميع فئات تراتبية المجتمع بتسهيل وتبسيط العبارات والتخفيف من المضامين.

26- خالد زهري، المرجع السابق، ص173. تبوأ متن " أم البراهين " منزلة هامة عند مجتمع المغرب الأوسط والمغرب الإسلامي عموما نظرا لمنهجية الطرح والمسائل المتناولة فيها وشموليتها ورؤيتها الأشعرية الدقيقة واستطاعت فرض وجودها في مجال الدرس عبر مختلف المجالات الجغرافية.

27- يوسف احنانة، المرجع السابق، ص140.

28- المرجع السابق، ص151.

29- عبد الخالق أحمدون، المرجع السابق، ص289.

30- أحمد عبادي، المرجع السابق، ص05.

31- محمد بوشقيف، المرجع السابق، ص362.

32- عبد الخالق أحمدون، المرجع السابق، ص292. يوسف احنانة، المرجع السابق، ص114.

33- يرى الباحث عبد الله معصر أن المرحلة السنوسية تمثل نوعا من التراجع في علم الكلام الأشعري على مستوى المضامين أين وقع فيها الخلط بين ما هو منطقي وما هو عقدي مع وجود تطور كمي على مستوى المصنفات حيث ظهرت الحواشي والتعليقات والشروح البسيطة. عبد الله معصر، المرجع السابق، ص100. نختلف مع رأي الباحث فيما ذهب إليه لأن المرحلة السنوسية شهدت علماء آخرين غير السنوسي أبدعوا في تصانيفهم العقدية وإن كان ليس بنفس مستوى الطرح السنوسي، كما أننا نفضل استعمال مصطلح دمج بين ما هو منطقي وما هو عقدي على توظيف مصطلح خلط لأن المعنى يختلف والمرحلة السنوسية دمجت المنطق في أمور العقيدة بعدما أرجعته إلى أصالته وأضحى توظيفه لتقوية الطرح أما الخلط فيعني عدم التفريق وعدم التمييز فتداخلت الأمور

بينهما دون رضا الطرفين المنطق والعقيدة.

34- عبد الخالق أحمدون، المرجع السابق، ص293. رغم المعارضة التي تعرض لها السنوسي من قبل معاصريه في عديد القضايا إلا أن ذلك لم يؤثر في عطائه العقدي.

35- المرجع السابق، ص292. يوسف احنانة، المرجع السابق، ص114،127. ثمة نظرة وأطروحات للسنوسي في مسألة نبذ التقليد ودعوته المتجددة إلى الاجتهاد وضرورة النظر العقلي لأنه ثابت عقدي أشعري بحكم واجب عيني وشرط في الإيمان، لأن المقلد في العقائد أجمعوا على عدم جواز إيمانه. خالد زهري، المرجع السابق، ص87.

36- يوسف احنانة، المرجع السابق، ص229.

37- عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2006، 976/3. هو أول من شرع قسمة متقدمين ومتأخرين في النظام المعرفي الأشعري.

38- سعيد بنسعيد العلوي، الخطاب الأشعري – مساهمة في دراسة العقل العربي الإسلامي –، منتدى المعارف، بيروت، 2010، ص 11.

39- بنسعيد العلوي، المرجع السابق، ص47.

40- المرجع السابق، ص216. تطرق ابن خلدون إلى هذا الأمر ضمن فصل علم الكلام وقدم الخطاب الأشعري بصيغة العلم والإنصاف. المصدر السابق، 969/3.

41- ربيعة سحنون و طارق العلمي، منهج الإمام الجنيد في السلوك و خصائص الممارسة الصوفية بالمغرب، دار أبي رقراق للطباعة و النشر، وجدة، 2012، ص130.

42- أبو الحسن علي بن اسماعيل الأشعري، الإبانة عن أصول الديانة، ط3، تحقيق: بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان، دمشق – مكتبة المؤيد، السعودية، 1990، ص56. أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق: أحمد مبارك البغدادي، مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت، 1989، ص04.

43- يوسف احنانة، المرجع السابق، ص259. خالد زهري، المرجع السابق، ص87.

44- ناجية بوعجيلة، المرجع السابق، ص385.

45- ساعد خميسي، المرجع السابق، ص126 – 127.

46- ناجية بوعجيلة، المرجع السابق، ص359.

47- عبد الله عبد اللاوي، حفريات الخطاب التاريخي العربي- المعرفة، السلطة و التمثلات-، ط1، ابن النديم للنشر و التوزيع، وهران- دار الروافد الثقافية، لبنان، 2012، ص149 – 150.

48- ناجية بوعجيلة، المرجع السابق، ص359.

49- مقداد عرفة منسية،" الحديث عن العلوم في مقدمة ابن خلدون": ضمن كتاب: ابن خلدون و منابع الحداثة، المجمع التونسي للعلوم و الآداب و الفنون، قرطاج، 2008، 763/2، بالعودة إلى نص ابن خلدون فصل علم الكلام، نجد بأنه عرج على ذكر المعتزلة وآرائها وصدارة خوضها في مسائل علم الكلام وتتبع نشأة هذا العلم ومراحل تطوره وأعقب حديثه عن أفكار المعتزلة بالنهضة الأشعرية لدفع تلك المعتقدات الفاسدة للمعتزلة. ابن خلدون، المصدر السابق، 975/3.

50- ناجية بوعجيلة، المرجع السابق، ص385.

51- عبد الواحد بن أحمد ابن عاشر، المرشد المعين على الضروري من علوم الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2013، ص 03.